

سورة الكهف (الآيات: 31 - 35)

11

١١

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف بداية قصة صاحب الجنتين مع رفيقه.
- 2- أن أقف على جمال الأسلوب القرآني من خلال ضرب الأمثال.
- 3- أن أحرص على التزام شكر الله على نعمه، وأتجنب كفران النعمة والتكبر على الخلق.

تمهيد

بعد أن انتهى سياق الآيات المتقدمة من بيان عدل الله سبحانه وفضله في مقابلة العمل الصالح المتقن الخالص بالثواب العقيم والأجر العظيم، وإكرام أهله بأنواع الكرامات والإنعام عليهم بجميل المكرمات، انتقلت الآيات إلى ضرب المثل رداً على المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين.

فكيف ساقطت الآيات قصة المثل؟ وما وجه مناسبتها لما ضربت له؟ وما العبر المستخلصة

منها؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لِنَعْمِ مَثَلًا تَجْلِيحُ جَعَلْنَا لَكَ حَدِيدًا جَنَّتِيْرٍ مِّنْ أَعْنَابٍ
وَحَقَبْنَا لَهَا بَنَاجِلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ۝٣٢ كَلْنَا الْجَنَّتِيْرَ أَنتَ أَكْلًا وَلَمْ تَكْضِلْ
مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَقَرًا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا
أَكْثَرُ مِمَّا مَلَآ وَاعْزُزْ نَقَرًا ۝٣٤ وَلَمْ يَخْلُجْتَهُ وَلَهُ خِالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۚ قَالَ مَا أَكْثَرُ

تَبِيدَ قَلِيلًا أَبَدًا وَمَا الْخُرُوسُ إِلَّا سَاعَةٌ فَأَيُّكُمْ زَائِدٌ إِلَى رَبِّهِ لَا جِدَّةَ خَيْرًا مِنْهُمَا
مُنْقَلَبًا ﴿٣٥﴾ [الكهف: 32 - 35].

الفهم

الشرح:

مَثَلًا: شَبَّهَا.

وَحَقِّقْنَا لَهَا: وأعطناهما من كل جهة.

نَقَرًا: ماء كثيرا جاريا.

وَأَعَزُّ: وأشرف وأقوى.

زَيْدًا: رجعت وأعدت بعد الموت

استخلاص مضامين الآيات:

- 1- لمن ضرب المثل بقصة صاحب الجنتين؟
- 2- ما النعم التي ابتلى الله بها الرجل المذكور في القصة؟
- 3- ما القيمة السيئة التي أظهرتها النعمة في صاحب الجنتين؟

التفسير

اشتملت آيات الدرس على ما يأتي:

أولاً: ضرب المثل لحال الكفار المتكبرين:

قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَنَا مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾. أي: واحك لهم على سبيل التمثيل والتشبيه حال رجلين كما وصفهما الله في المثل.

والمثل تشبيه حال بحال لقوة الشبه بينهما، ولذلك قيل في تعريفه: ما أشبه مضربه مورده. وهو في القرآن والسنة كثير، وكذا في كلام العرب وأشعارها.

والضمير في ﴿لَنَعْمَ﴾ عائد على الطائفة المتجبرة التي أرادت من النبي عليه السلام أن يطرد فقراء المؤمنين ﴿يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، وعلى أولئك المؤمنين الداعين أيضا، فالمثل مضروب للطائفتين، إذ الرجل الكافر صاحب الجنتين هو بإزاء متجبر في قريش أو بني تميم على خلاف المذكور بين المفسرين، والرجل المؤمن المقر بالربوبية، هو بإزاء بلال وعمار وصهيب وأقرانهم.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لِنَعْمٍ مِّثْلًا تَجْلِيْرُ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستتكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله: ﴿وَاضْرِبْ نَفْسًا﴾. [الجامع لأحكام القرآن: 5 / 261].

وقد أطال المفسرون في تعيين هذين الرجلين، وعادة القرآن أن يبين القائل أو الفاعل لعدم ترتب فائدة على التعيين.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ غَدَاةٍ جَنَّتَيْنِ مِنْ أَغْنَابٍ وَحَقْبَيْنِ لِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾.

هذه الهيئة التي ذكر الله، لا يكاد المرء يتخيل أجمل منها في مكاسب الناس: جنتا عنب أحاط بهما نخل، بينهما فسحة، هي مزرع لجميع الحبوب، والماء يسقى جميع ذلك من النهر الذي قد جمل هذا المنظر، وعظم النفع، وقرب الكد، وأغنى عن النواضح وغيرها مما يسقى به. ومعنى ﴿وَحَقْبَيْنِ لِنَخْلٍ﴾، قال القرطبي: «أي: أطفناهما من كل جوانبهما بنخل، والحفاف الجانب، وجمعه أحفة، ويقال: حف القوم بفلان يحفون حفا، أي طافوا به، و﴿حَاقِبَرٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: 72] بهذا المعنى. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ أي: جعلنا حول الأغصان النخل، ووسط الأغصان الزرع» [الجامع لأحكام القرآن: 5 / 261].

ثانيا: ابتلاء صاحب الجنتين بصلاح الحال وإقبال الدنيا:

قال تعالى: ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ إِتَتْهُمَا كَلَّا﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله: «كلا البستانين أطعم ثمره وما فيه من الغروس من النخل والكرم وصنوف الزرع. وقال: كلتا الجنتين، ثم قال: آتت، فوجد الخبر، لأن كلتا لا تفرد واحدها، وأصله «كل»، وقد تفرد العرب كلتا أحيانا، ويذهبون بها وهي مفردة إلى التنثية... وكذلك تفعل بـ «كلتا» وكلا وكل إذا أضيفت إلى معرفة، وجاء

الفعل بعدهن ويجمع ويوحد». [جامع البيان: 9 / 244].

والألف في «كلا» و«كلتا» ألف تنثية، وقد ألحقا بباب تنثية جمع المذكر السالم. «وفي قراءة عبد الله - ابن مسعود - «كل الجنيتين أتى أكله». والمعنى على هذا عند الفراء: كل شي من الجنيتين أتى أكله». [الجامع لأحكام القرآن: 5 / 262].

والأكل في قوله تعالى: ﴿ءَاتَتْ كَلْفًا﴾ بمعنى ثمرها الذي يؤكل منه، كما في قوله تعالى: ﴿كُلْفًا آيْمٌ وَضِلْفًا﴾ [الرعد: 36]. وسكن الكاف من «أكلها» نافع وابن كثير وأبو عمرو، وضمها غيرهم.

وقوله: ﴿وَلَمْ تَكْظَلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾، قال الطبري: «ولم تنقص من الأكل شيئاً، بل آتت ذلك تاماً كاملاً، ومنه قولهم: ظلم فلان فلانا حقه: إذا بخسه ونقصه». [جامع البيان: 9 / 244].

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَّ نَاقِلَةً نَّاقِرًا﴾، أي: والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا. قرأ الجمهور ﴿نَقَرًا﴾ بفتح الهاء، وقرئ في الشاذ ﴿نَفَرًا﴾ بسكون الهاء.

وقوله: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾، قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحزمة والكسائي «ثُمْر» و«بُثْمُرَه» بضم الثاء والميم، جمع ثمار، وقرأ أبو عمرو البصري بسكون الميم فيهما تخفيفاً، وهي في المعنى كالأولى، ويتجه أن يكون جمع ثَمَرَةٍ كـ «بَدَنَةٍ» و«بُذْنٍ»، وقرأ عاصم «ثَمَر» و«بُثْمُرَه» بفتح الميم والطاء فيهما. واختلف المفسرون في «الثمر» بضم الثاء والميم، فقال ابن عباس وقتادة: «الثمر» جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك... وما أثمر من مال ومن ولد. وقال مجاهد: يراد بها الذهب والفضة خاصة. وقال ابن زيد: «الثمر» هي: الأصول التي فيها الثمر. كأنها «ثمار» و«ثمر» كـ «كتاب» و«كتب». وأما من قرأ بفتح الثاء والميم، فلا إشكال في أن المعنى ما في رؤوس الشجر من الأكل، ولكن فصاحة الكلام تقتضي أن يعبر إيجازاً عن هلاك الثمر والأصول بهلاك الثمر فقط، فخصصها بالذكر، إذ هي مقصود المستغل، وإذ هلاك الأصول إنما يسوء منه هلاك الثمر الذي كان يرجى في المستقبل، كما يقتضي قوله: إن له «ثمراً»، أن له أصولاً، كذلك تقتضي الإحاطة المطلقة بالثمر، أن الأصول قد هلك.

ثالثاً: اغترار صاحب الجنيتين بكثرة المال وعزة العشيرة:

قال تعالى: ﴿قَالَ لِصَحْبِهِ، وَتَوَخَّوْا زُلَّةً، أَنَا أَكْثَرُ مِنْكُمْ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾. فسرهُ

الطبري بقوله: «يقول عز وجل: فقال هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب، لصاحبه الذي لا مال له وهو يخاطبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِمَّا مَالًا وَأَعَزُّ نَقْرًا﴾» يقول: وأعز عشيرة ورهطا، كما قال عبيدة والأقرع لرسول الله ﷺ: نحن سادات العرب، وأرباب الأموال، فنحّ عنا سلمان وخبابا وصهيبا، احتقارا لهم، وتكبرا عليهم، وتلك والله أمنية الفاجر: كثرة المال، وعزة النفر». [جامع البيان: 9 / 246]. ومعنى: ﴿وَفَوْقَ نَحْوِ رَءُسِهِ﴾ أي: يراجعه في الكلام ويجاوبه، والمحاورة المجاوبة، والتحاور التجاوب.

وقوله لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِمَّا﴾ اعتداد منه بما ليس له منه إلا التصرف، والمنة فيه عليه الله مالكة وواهبه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]. وقوله: ﴿وَأَعَزُّ نَقْرًا﴾ النفر: عشيرة الرجل الذين ينفرون معه، وأراد بهم هنا ولده، كما دل عليه مقابلته في جواب صاحبه بقوله: ﴿إِن تَرَىٰ أَنَا أَفْلَاحٌ مِّنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾. قال الثعالبي: «وقوله: ﴿وَأَعَزُّ نَقْرًا﴾ يضعف قول من قال: إنها أخوان فتأمل». [الجواهر الحسان: 3 / 524]. وانتصب ﴿نَقْرًا﴾ على التمييز لنسبة أعز إلى ضمير المتكلم.

رابعاً: حال صاحب الجنتين عند دخول جنته:

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَفَوْقَ هَٰذَا لِمَ لِنَفْسِهِ﴾، أفرد الجنة بالذكر مع أنها جنتان لأنه لا يدخلهما معا في وقت واحد، بل كان دخوله لأحدهما. و«ظلمه لنفسه» كان بكفره وشكه في البعث. قال الإمام الطبري رحمه الله: «وظلمه نفسه: كفره بالبعث، وشكه في قيام الساعة، ونسيانه المعاد إلى الله تعالى، فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه». [جامع البيان: 9 / 246].

وقوله: ﴿قَالَ مَا الْخُضْرَانُ تَبِيَّةٌ قَلِيلَةٌ أَمْ لَا﴾، معنى ﴿تَبِيَّةٌ﴾ أي: تهلك وتفنى، والإشارة بـ ﴿قَلِيلَةٌ﴾ إلى الجنة التي هما فيها، أي: لا أعتقد أنها تنتقض وتضمحل. ويحتمل أن تكون الإشارة إلى الدنيا. والمراد بالأبد هنا طول المدة، أو عني بالأبد أمد حياته وذلك لطول أمّله، «أي: هي باقية بقاء أمثالها لا يعتريها ما يبدها. وهذا اغترار منه بغناه واغترار بما لتلك الجنة من وثوق الشجر وقوته وثبوته واجتماع أسباب نمائه ودوامه بما حوله من مياه وظلال». [التحرير والتنوير لابن عاشور: 15 / 320].

ثم انتقل من الإخبار عن اعتقاده دوام تلك الجنة، إلى التصريح باعتقاده التكذيب بالبعث وقيام الساعة، فقال: ﴿مَا أَكْثَرُ السَّاعَةَ فَايَمَةً﴾ أي: لا أحسب البعث كائناً ولا القيامة واقعة.

ولا تلازم بين المعتقدين، ولكنه أراد التورك على صاحبه المؤمن تخطئة له، ولذلك عقب ذلك بقوله: ﴿وَلَيْسَ رُحْدْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَتِ خَيْرًا مِنْهُمَا مُنْقَلَبًا﴾ تهكما بصاحبه. وقرينة التهكم قوله: ﴿مَا أَكْثَرُ السَّاعَةَ فَايَمَةً﴾.

قال أبو حيان رحمه الله: «أَقْسَمَ عَلَى أَنَّهُ إِنْ رُدَّ إِلَى رَبِّهِ عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ وَقِيَاسِ الْآخَرَى عَلَى الدُّنْيَا، وَكَمَا يَزْعُمُ صَاحِبُهُ، لَيَجِدَنَّ فِي الْآخِرَةِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِهِ فِي الدُّنْيَا، تَطْمَعًا وَتَمَنِّيًّا عَلَى اللَّهِ، وَادِّعَاءً لِكِرَامَتِهِ عَلَيْهِ، وَمَكَانَتِهِ عِنْدَهُ، وَأَنَّهُ مَا أَوْلَاهُ الْجَنَّتَيْنِ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِاسْتِحْقَاقِهِ، وَأَنَّ مَعَهُ هَذَا الْاسْتِحْقَاقَ أَيْنَ تَوَجَّهَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي لَعِنْدَكَ لِلْخَسْبِ﴾ [فصلت: 49]». [البحر المحيط: 7 / 176].

وقوله: ﴿لَأَجِدَتِ خَيْرًا مِنْهُمَا مُنْقَلَبًا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «منهما»، يريد الجنيتين المذكورتين أولاً، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي «منها»، يريد الجنة المدخولة.

خامساً: لطائف وفوائد:

- في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ رُحْدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ استعمال «إن» الشرطية فيما لا يتوقع أو لا يتحقق وقوعه، بخلاف إذا الشرطية؛ ولذلك كثيراً ما تستعمل «إن» في المكروه، «وإذا» في المحبوب، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ نَصْرُ الْحَسَنِ فَالُوا لَنَا لَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: 35]، وفي قصة الرجلين مثال على ذلك. [الاعراف: 130]

- الابتلاء لا يكون فقط بالشر أو بالمنع - كما قد يتوهمه الكثير - بل ربما كان بالخير كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]، وفي قصة الرجلين مثال على ذلك.

- ضرب الأمثال منهج قرآني تعليمي لتوضيح المفاهيم وتصوير الأحداث وتقريب المعاني المجردة، كما هو مسلك تربوي تعبدى يحسُن بالمسلم تدبره لاستنباط ما في هذه الأمثال من حكم ربانية وسنن كونية وهدايات تربوية وبصائر إيمانية وأخلاقية تتحصل بها سعادة الدنيا والآخرة.

- جحود النعمة والتكبر بها على الخلق من الصفات المذمومة، والكبائر التي حرمها الإسلام، وأوصى المؤمن بتجنبها ولزوم الشكر والتحلي بخلق التواضع والرحمة والشفقة على

الخلق رعاية لحقوق الله وحقوق العباد.

- قول صاحب الجنتين: ﴿أَنَا﴾ كقول قارون: ﴿عِنْدِي﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا آتَوْنِيثُهُ، عَلَيَّ عِلْمٌ عِنْدِي﴾ [القصص: 78] وقول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ إِلَّا عَالِي﴾ [النازعات: 24]، ومن قبلهم جميعا إبليس، قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [ص: 75]. ولذلك قالوا:

أربعة مهلكة للعبد * * * أنا ونحن ومعني وعندي.

التقويم

- 1- أُحَدِّدُ مرجع الضمير من ﴿لَعْنُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَعْنُمْ﴾.
- 2- ما إعراب قوله تعالى: ﴿نَقْرًا﴾؟
- 3- ما العلة في أفراد الجنة بالذكر في قوله: ﴿وَلَا تَدْخُلَنَّهَا﴾ مع أنهما جنتان؟
- 4- أُحَدِّدُ موقفني مما فعله صاحب الجنتين، مع التعليل.

الاستثمار

قال الإمام السيوطي رحمه الله في النوع السادس والستين من علوم القرآن، وهو أمثال القرآن: «ضَرْبُ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ يُسْتَفَادُ مِنْهُ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ: التَّنْكِيرُ، وَالْوَعْظُ، وَالْحَثُّ، وَالزَّجْرُ، وَالْإِعْتِبَارُ، وَالتَّقْرِيرُ، وَتَقْرِيبُ الْمُرَادِ لِلْعَقْلِ وَتَصْوِيرُهُ بِصُورَةِ الْمَحْسُوسِ، فَإِنَّ الْأَمْثَالَ تُصَوِّرُ الْمَعَانِيَ بِصُورَةِ الْأَشْخَاصِ؛ لِأَنَّهَا أَثْبَتُ فِي الْأَذْهَانِ لِاسْتِعَانَةِ الذَّهْنِ فِيهَا بِالْحَوَاسِّ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْغَرَضُ مِنَ الْمَثَلِ تَشْبِيهِ الْخَفِيِّ بِالْجَلِيِّ، وَالْغَائِبِ بِالشَّاهِدِ. وَتَأْتِي أَمْثَالُ الْقُرْآنِ مُشْتَمِلَةً عَلَى بَيَانِ تَفَاوُتِ الْأَجْرِ، وَعَلَى الْمَدْحِ وَالذَّمِّ، وَعَلَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَعَلَى تَفْخِيمِ الْأَمْرِ أَوْ تَخْفِيرِهِ، وَعَلَى تَحْقِيقِ أَمْرٍ أَوْ إِطْلَالِهِ.... وَأَمْثَالُ الْقُرْآنِ قِسْمَانِ: ظَاهِرٌ مُصَرِّحٌ بِهِ وَكَامِنٌ لَا ذِكْرَ لِلْمَثَلِ فِيهِ».

[الإتقان في علوم القرآن: 4 / 45].

أتأمل النص وأجيب عما يأتي:

- 1- أصنف في خطاطة الأغراض التي تأتي لها الأمثال في القرآن.
- 2- ما الغرض الذي جاء له المثل المضروب في آيات هذا الدرس؟
- 3- أبين أقسام أمثال القرآن، وأمثلة لكل قسم.

الإعداد القبلي

أراجع تفسير الآيات: 36 - 43 من سورة الكهف وأجيب عن الآتي:

- 1- ما محل جملة ﴿وَقَوْضَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ من الإعراب؟
- 2- ما الهدى النبوي المستحب فيمن رأى ما يعجبه ويسر به؟
- 3- أبحث عن مدلولات ما يأتي: حُسْبَانًا - حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِنَا - زَلْفًا - غَوْرًا.